الفصل السابع

قال الشيخ :

ـ أثبت العلم الحديث أن الدماغ لا يعرف لغة إلا لغة الكهرباء . والمعلومات التي يتم جمعها عن طريق الحواس تختزن في الدماغ بواسطة النبض الكهربائي ، ولا يعرف أحد حتى الآن الرموز الكهربائية التي استخدمها الدماغ لخزن هذه المواد .

كان يتكلم شاخص البصر وكأنه يخاطب إنساناً غير منظور . . ثم انتبه فجأة ونظر إلي وقال :

ـ أترى إلى أين وصل نشاط الكهرباء ؟ قل لي هل فكرت أنت يوماً كيف تحفظ ذاكرتك المعلومات ؟

أجبت على استحياء :

لطالما فكرت في هذا يا سيدي . العجيب أنني لا أشعر أن الذاكرة حاسة . الإحساس الذي يداخلني هو أنها ملتصقة بي ، بنفسي ، بذاتي . أريد أن أتذكر شيئاً فأذكره في الحال ، وأتذكر أحداثاً وقعت لي منذ زمن طويل وكأنها وقعت في الأمس ، وقد أسمع صوت إنسان لم أره منذ أعوام فإذا بي أذكر فجأة أين لقيته وكيف عرفته . هل تصدق يا سيدي أنني أتساءل دائماً هل في استطاعة

أعظم كومبيوتر أن ينافس الذاكرة في الاستجابة لتقديم ما هو مطلوب منها خلال زمن لا يتجاوز الثواني ؟

ـ تبسم وقال :

ـ ومع هذا فذاكرتك تخونك أحياناً .

ـ هذا صحيح .

ـ تريد أن تتذكر أمراً فلا تستطيع .

ـ أجل .

ـ وتحاول وتلح فتفشل .

ـ هذا يقع بالفعل .

ـ وتبذل جهدك لكي تتذكر فتظهر وكأنك تحاول أن ترغم آلة لديك على العمل فلا تستجيب .

ـ أجل هذا صحيح .

ـ ويحدث أنك تتذكر فجأة ، وتلقائياً ، ما كنت أردت أن تذكره .

ـ هذا ما يحدث يا سيدي .

ـ الذاكرة حاسة مدهشة . . تستقبل على مدى العمر معلومات لا تحصى ومن جميع الأنواع ، ولها نشاطها الخاص ، فهي تحفظ أشياء وتنسى أشياء ، وتكون قوية في الصغر ثم تتضاءل قوتها مع الأيام وتضعف في الكبر . ولطالما سمعنا عن مرضى فقدوا الذاكرة تماماً فلم يعودوا يذكرون عن ماضيهم شيئاً . . لم يعودوا يعرفون إلا أنهم أبناء اليوم الذي يعيشون فيه . ويبذل الأطباء المتخصصون وسعهم لإعادة الذاكرة المفقودة إلى المريض ، ولهم في هذا وسائل . إذن نحن أمام حاسة خارجة عن ذاتنا معينة لنا ، هي معنا وليست إيانا .

قلت هازاً رأسي :

ـ جميل هذا القول ، هي معنا وليست إيانا .

التفت، ومد يده إلى المسجلة القريبة منه وأدارها فصدح صوت أم كلثوم.

واستمعت لحظات ثم وجدتني أتساءل على الرغم مني : ماذا أراد بهذا مثلاً هذه المرة ؟ لقد أسمعني صوتها لتحقيق غرض في المرة الأولى فهل تراه يفعل مثل هذا الآن ؟

وسألني :

ـ هل اتفق لك مرة أن كنت سائراً في الطريق وقد استغرقك التفكير فإذا بصوت يناديك فتنتبه فإذا بصديق يقول لك : إلى أين يا أخانا أين كنت شارداً ؟ . ويتبين لك أنك لم تر صديقك رغم أنكما تقابلتما في الطريق لشدة استغراقك في التفكير ؟

ـ هذا يقع لي كثيراً يا سيدي ، ولطالما لامني أصدقائي على شرودي بالفعل .

ـ إذن كنت تبصر ولا تبصر إن صح القول .

هززت رأسي موافقاً .

ـ وماذا تغني أم كلثوم .

انتبهت فجأة وتساءلت :

ـ نعم ؟

ـ سألتك ماذا تغني ؟

أصغيت لأعرف ما كانت تغني ، فإذا بالشيخ يبسط يده ويهز سبابته كالبندول قائلاً :

ـ لا ، ليس الآن . . فات الأوان . كنت تسمع ولا تسمع . كنت تسمع أم كلثوم ولا تميز ما تسمع . . أي أن أذنيك لم تنقل إليك صوتاً رغم أنها نقلته ، أليس هذا ما حدث ؟

فهمت ما أراد الشيخ أن يرمي إليه فأطرقت برأسي ، بينما تابع هو :

ـ هل تعلم أن من عادتي ألا أسمع غناء أو موسيقى إلا حين أكون وحيداً ، وحين أكون راغباً في السماع . . والذين يسمعون الغناء ويتحدثون لا

يسمعون الغناء، لا يسمعونه وإن كانوا يسمعونه فما جعل الله لأحد من قلبين في جوفه .

ومد الشيخ يده وأوقف المسجلة ، وفكرتُ : يا إلهي ، هذا الإنسان لا يدع شاردة ولا واردة إلا فكر فيها . وألقى نظرة علي ، نظرة من النوع التي تنفذ كالشعاع ، كالوميض ، وقال :

ـ ألم تستوقفك العبارة الأخيرة ؟

ـ قلت لم يجعل الله لأحد من قلبين في جوفه ؟

قلبت شفتي ، في حين اكتسى وجهه فجأة بطابع الجد العميق وتابع قائلاً :

ـ لاحظ الصلة بين الحواس والقلب ، لاحظ الصلة وعدم الصلة . الحواس موجودة لخدمتنا ولكنها ليست إيانا . الحواس الظاهرة والباطنة ، هي لنا وليست لنا ، ولو كانت لنا بالكلية لما استعصت علينا أحياناً كما تستعصي الذاكرة . إنها بالفعل مثل خادم مخلص ، والخادم يخدمنا مع الاحتفاظ باستقلاله ، وقد يخطىء وقد يتلكأ وقد يمرض وقد وقد . .

وفجأة رشقني بنظرة من نظرته النفاذة القاسية كالفولاذ وسألني :

ـ كم لك من العمر ؟

عجبت وأجبت :

ـ أقترب من الخمسين يا سيدي .

ـ إذن أنت تعاني فتوراً في القوة الجنسية ، أليس كذلك ؟

اتسعت عيناي ، اتسعتا بحركة لا إرادية . فلقد فاجأني الشيخ بما قاله إذ ما كنت أتصور أن الشيخ يمكن أن يتحدث بلغة كلغة الجنس . . ثم إن ما قاله صحيح ، صحيح ، يا إلهي . لقد ظل يتأملني وكأنه ضبطني متلبساً بجرم وتابع قائلاً :

ـ تعيش الكهولة يا بني وودعت الرجولة . لقد انتقلت من طور إلى

طور . قال الامام الغزالي واصفاً هذا الحال : (بقاء الرغبة مع فتور القـوى) . فالإنسان يرغب ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق ما يرغب ، أو أن به فتوراً كما حدد الغزالي . . ومع هذا ففتور القوى خير من خمودها .

فزعت مما قال وساءلت نفسي : وهل ستخمد القوى نهائياً ؟

وتابع الشيخ قائلاً :

ـ أجل ، ستبلغ سناً يصبح جسدك فيه عاجـزاً ، عاجـزاً مثل رجـلي هذه التي أتوكأ عليها وأساعدها بالعصا ولا أحس فيها أي إحساس . . إنها مني ومـع هذا فهي منفصلة عني . أليس هذا هو واقع الحال يا بني ؟ مثل الإنسان في فتور القوى أو عجزها كمثل فارس صنديـد كان سيـد الساح يجـول فيه عـلى حصانـه ويجول ، ثم إذا بالحصان يهرم ويضعف وإذا الفارس لم يعد فارساً ، أعني أنـه لم يعد يملك حصاناً يأمره فيلبيه ويمتطيه فيكون خير مطية ويسابق به الريح ويفـاخر به العدو والصديق . أليس جسدك حصانك يا بني ؟ الجسد مطية لا غير ، مطية للنفس يلبي أوامرها ولكنه ليس هي .

كان ما قاله صحيحاً ، صحيحاً تماماً .

ـ والآن ، حك لي قدمي .

انتبهت وقلت لأتأكد مما سمعت :

ـ أمر سيدي ؟

ـ حك لي قدمي .

قال هذا ومد رجله أمامي وكشف عن سـاقه مخـرجاً قـدمه من المشـاية ثم نظر إلي . . ولا أدري ما الذي دخلني . . لقد تقدمت منه وأنا أعاني ضرباً معـه المشاعر المتناقضة . فلسبب ما شعرت بالنفور ممـا أنـا مقبـل عليه . أأنـا أحك قدمه ؟ ومع هذا فللشيـخ علي دالـة فهو معلمي وسيـدي ومولاي ، غـير أنا مـا أزعجني بخـاصة نبـرة صوتـه حين طلب إلي مـا طلب . كان في صـوته غلظة ، أجل غلظة لم أعتدها منه .

وانحنيت ومددت يدي إلى قدمه التي كانت تنتظر . . قدم معروقة هزيلة طويلة الأصابع . آه ، لم هذا الشعور بالقرف يزداد فيّ ؟ الشيخ لو بصق علي لكان علي أن أتحمل . وما أن كدت ألمس قدمه حتى سحبها وانحنى وأمسك بكتفي قائلاً بصوته الذي عاد يفيض حناناً :

ـ إنهض يا بني .

ونهضت . ونظرني مبتسماً ثم سألني :

ـ طلبت إليك أمراً فلبيتني .

ـ قلت بصوت خفيض :

ـ هذا واجبي .

ـ سمعت قولاً فتحركت فما الذي حركك ؟

ـ قولك يا سيدي .

ـ إذن القول تحول إلى فعل .

يا إلهي ، هذا الإنسان كم هو عميق ، عميق . . إنه يريد أن يضرب إذن مثلاً . . وتابع هو قائلاً :

ـ ما الذي حرك أعضاءك لتلبية الطلب ؟

ـ عقلي بالطبع .

ـ وكيف حرك عقلك أعضاءك ؟

أجبت :

ـ نبه المراكز العصبية في الدماغ ، والمراكز العصبية نقلت الأمر فتحركت الأعضاء .

ـ وكيف تنبهت المراكز العصبية في الدماغ ؟

قلت معلناً استسلامي :

ـ أنت تريد الصلة بين العقل والحس ، والموضوع غامض يا سيدي والأقوال فيه متضاربة .

ـ والأفكار ، كيف تصدر عن الدماغ ؟

قلت :

ـ هذا هو الطرف الثاني من القضية الغامضة . الماديون مثلاً يقولون إن جسيمات ذرات الخلايا العصبية في الدماغ تتصادم فتنتج فكراً .

ـ وكيف يحللون دور الإرادة ؟

ـ الارادة ؟

ـ أجل ، إذا فسرنا انتاج الفكر على هذا النحو فإن الأفكار تكون عندئذ متشابهة . . في حين نرى أن الماديين يرسمون في القصص والأفلام صوراً للإنسان ، يرسمون للشجاع صورة وكذلك للجبان . جنديان في خط النار يواجهان موقفاً حرجاً للغاية ، فإذا بأحدهما يفر من المواجهة في حين يقدم الآخر على التضحية بنفسه في سبيل الآخرين . وهذا جميل ، ولكن كيف تستطيع النظرية القائلة إن الأفكار نتيجة تصادم جسيمات الذرات في الخلايا الدماغية أن تبين لنا لم اختار أحد الجنديين موقفاً يناقض موقف الجندي الآخر ؟ لم كان أحدهما شجاعاً والآخر جباناً ؟

ـ إنهم يردون هذا إلى التربية و . . والبيئة .

ـ ولكن لنفترض أن الجنديين شقيقان ، وقد يحدث هذا . . من أب واحد وأم واحدة وحي واحد ومدرسة واحدة وبيئة واحدة . .

فكرت وفكرت ثم قلت :

ـ لا أدري يا سيدي .

ـ سبحان الله ، هم يحثون على الشجاعة ولا يعترفون بالإرادة الحرة ، أو أنهم يتبنون الإرادة الحرة ولا يستطيعون تفسير مصدرها ما داموا يرجعون كل فكر إلى تصادم جسيمات الذرة في خلايا الدماغ .

كان ما يقوله صحيحاً ، وما الذي يقوله الشيخ لا يكون صحيحاً ؟

واستطرد هو بعد لحظات :

ـ والآن لنعد إلى موضوعنا . سمعت طلبي فأردت تلبيتي ، والإرادة فكر والفكر عقل . . والحركة عضوية ، فما الذي نبه المراكز العصبية في الدماغ حتى تحركت الأعضاء ؟

وجدتني عاجزاً عن الإجابة . وإذا كان علماء العصر الحديث المتخصصون قد عجزوا عن ردم الهوة الفاصلة بين العقل والجسد فهل بوسعي أنا تحقيق ذلك ؟

حاولت أن أستنجد بالفلسفة فقلت :

ـ إن للنفس قواها يا سيدي ، لها حواسها الظاهرة والباطنة .

ـ وهل نسيت ما نتج معنا قبل قليل من نظرنا إلى الحواس ؟ أما لاحظت أن هناك انفصالاً بين النفس والحواس ؟ لقد اتضح بالتجربة أن هذه الحواس تعمل عملها أو لا تعمل عملها في حين تكون النفس في معزل عن ذلك . كانت حاسة السمع تعمل ولم تكن تصغي إلى ما توصله إليك من أصوات ، وكانت عيناك تريان ولكنك كنت شارداً فلم تر صديقك . . ولقد اعترفت بأنك تستنجد أحياناً بالذاكرة فتخونك ثم تلبيك تلقائياً ، ثم ثبت أن قوى الحواس لها عمر وقوة وضعف فكيف تقول إن للنفس قوى وقد اتضح أن هناك انفصالاً بين النفس وقواها ؟

قلت :

ـ ربما كان للموضوع صلة بالنفس العاقلة والنفس الحيوانية . فالوعي من سمات النفس العاقلة وربما كان انشغال النفس العاقلة بموضوع قد شغلها عن عمل النفس الحيوانية .

ـ حسناً هل تذكر الرؤيا التي قصصتها عليك حين رأيت النفس العاقلة تستعد للهبوط إلى عالم العناصر لتنطبع فيه وكيف برزت النفس الحيوانية الممثلة في امرأة ترتدي سترة من الفرو الأبيض ومعها كلبان أبيضان ؟

ـ أجل يا سيدي .

ـ وعبرنا قائلين إن النفس الحيوانية هي أيضاً ذات وجود ما هـوي كائن في النور .

ـ أجل .

ـ إذن بدنك حصانك الـذي يحملك يتحرك بقـوى نفسك الحيـوانية فهـو يتحرك بالتالي بقوى النور الماهـوي ملبياً إرادتـك أنت ، وضربنـا مثلاً عـلى ذلك بالفارس الذي يمتطي حصانه وينزل إلى الساح فيكر فيه ويفـر وحصانـه مطواع بين يديه .

وسكت قليلاً ثم أضاف قائلاً :

ـ والحصان غير الفارس والفارس غير الحصان .

فكـرت وأنـا أحس بـالتعب : (أتعبني هـذا الشيـخ . . مـاذا يـريـد بالتحديد ؟) . وتابع قائلاً :

ـ والنفس الحيوانية منبثقة عن النفس الكلية . . وبـالتالي تنتهي إلى نتيجـة مفادها أن الأجساد الجزئية عند التصـور تشكل أيضـاً جسماً كليـاً متحركـاً بقوى النفس الحيوانية الكليـة المنبثقة عن النفس الكليـة التي تنبثق بدورهـا عن العقل الكلي الذي هـو إشعاع النـور الإلهي . ولقد أثبتنـا أن تكثف النور اللطيف أدى إلى ظهور النور الكثيف والنور الكثيف أشعة كهربائية تتشكل لتكـوين العناصـر فالأجسام وعليـه فالجسم الكـلي هو تعـين للنور متحـرك به وليس ثم جسم عـلى الحقيقة بل هناك ظهور للنور في صورة الأجسـام ، والنتيجة أن مـا يحملك ليس الجسم بل النور .

قال هذا ثم وضع أصابعه على طرف الطاولة مغمضاً عينيـه قليلاً وقـد بدا عليه الإجهاد ، ثم عاد ففتحهما وتابع قائلاً :

ـ ولنعـد إلى إرادتك أنت . تـريد أن تحـرك يدك فتحـركها وفسـرت هـذا بتنبيه المراكز العصبية في الدماغ فهل عرفت الوسيلة إلى تحقيق ذلك ؟ مـا الصلة بين المعقول والمحسوس ؟

قلت مبتسماً :

ـ أنت تجعل النور هو الوسيلة .

ـ جيد ، ولكن كيف ؟

ـ أنت جعلت الجسم كله نوراً ، أنت نفيت الجسم .

لفظت الكلمات الأخيرة بنبرة مشحونة برد فعل غرزي على موقف الشيخ من الجسم ، من جسمي أنا ، وقد جعله أثراً بعد عين . وضحك هو ، ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال :

ـ تفكر أنت ، تريد شيئاً ، فيتدخل النور . تنبيه المراكز العصبية في الدماغ يتم بواسطة النور ، لأن النور وحده هو الصلة بين الفكر والمادة ، هو الوسيط الوحيد بين المعقول والمحسوس ، وعليه فإنك إذا أردت أن تحك جسمك فإن عليك أن تستعين بالنور أي بالله ويترتب على ذلك أن الفعل لله والكسب للعبد كما تقول الصوفية وهذا معنى قولهم لا حركة ولا سكون إلا بأمره ، وإلى هذا المدى ينطبق قوله تعالى في قوله ﴿ كن فيكون ﴾ . أنت لا تحرك ساكناً إلا بإذن الله . تريد والنور يفعل ، وأثبتنا أن الجسم أصله نور والفعل فيه نور وتركيبه من النور .

وفجأة أسند رؤوس أصابعه على الطاولة ومال عليها وسألني :

ـ هل عرفت الآن البراق الذي امتطاه النبي حتى عرج إلى السماء ؟

فاجأني قوله فقلت :

ـ البراق ؟ براق النبي ؟

ـ أجل براق النبي . البراق برق ، والبرق كهرباء ، والكهرباء مطية الرسول . فجسمها جسم حيوان ورأسها رأس آدمي ، وهي ترقى في السماء ، في سماء المعقولات . هل فهمت الآن ما معنى اتخاذ النبي هذه المطية ؟